الحضارة العربية والنهضة الشرقية

خطبة الاستاذ محمد كردعلي في اكسفورد

زهد العرب في العلوم المادية قديماً وطلائع النهضة في الشرق

عقد مؤتمر المستشرقين الدولي السابع عشر في جامعة اكسفورد في ٢٧ اغسطس الماضي فحضره نحو ثلاثمائة مندوب نابوا عن ٢٥ دولة و٨٥ جامعة و٦٩ جمعية علمية وناب فيه الاستاذ محمد كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي ووزير المعارف السورية عن دولة سورية وناب الدكتور طه حسين والاستاذ جاد المولى بك والاستاذ سليم بك حسن الأثري عن الحكومة المصرية والدواجه فضلو الحوراني عن حكومة لبنان واحد الاباء اليسوعيين عن كلية القديس يوسف في بيروت والاستاذ كاظم الدجيلي عن العراق فرأيت ان اثبت هنا خطبة الاستاذ كردعلي آملين ان نوفق الى تلخيص بعض الخطب التي تليت فيه متى اطلعنا على نصوصها

يا سيداتي ويا سادتي : اصيبت بلاد العرب بعد المائة الثامنة للهجرة بفتور في اعصابها تناول معظم مشخصاتها ومقوماتها وضعفت في اقطارها مادة الحياة التي كانت متجلية في طبقات رجالها فاصبحت لا تعيش الا بقوة التسلسل المنبعثة فيها من قوى الادوار السالفة واكتفت بالتغني بماضيها الباهر وعزها الغابر

وكان من اول امارات تراجع الامة العربية من ميدان الفكر البشري الزهد في العلوم المادية والاكتفاء بفروع علوم الدين واللسان وعلى نسبة ما كان الغربي في تلك الحقبة من الزمن يقوم على قيود الجمود ليكسرها وينهض حرًّا طليقاً كان العربي يزيد للسلطات الدينية والمدنية خنوعاً ويحارب العقل فيتدلى ويرجع القهقرى

ورأى الغرب من مصلحة المدنية بعد نهضته ان لا يغفل عن تعرف حالة الشرق القديمة ففكر افراد منهُ بعد اختراع الطباعة ان يحيوا شيئاً من مدنية العرب كما احيا علماؤهم مدنيتي اليونان والرومان ، وذلك لان العرب كانوا الصلة الوحدة بين اهل المدنيات القديمة وارباب المدنية الحديثة فاخذ اهل النظر من نبهاء الغرب يلوون على كتب العرب يجمعونها من الشرق ويجعلونها في خزائنهم اجل قنية واثمن اثر ، وانشأوا يطبعون في مدينة روية اولاً بعض ما رأوا في نشره مصلحة لهم ، ومما نشروهُ قانون ابن سينا الذي ظلَّ يدرَّس في جامعات الغرب قروناً . ولم تلبث مطبعة ليدن ان

شرعت منذ أوائل القرن السابع عشر يطبع بعض كتبنا . وبعد حين انتقلت الطباعة الى الاستانة ولم تطبع بحروفها العربية شيئاً مهمًّا بلغتنا

وهكذا اخذت نهضة الآداب العربية تسري ضئيلة في بعض اقطار اوربا ، والشرقُ لا علم لهُ بما يؤسس ، حتى اذا احتلَّ نابليون مصر ، في أواخر القرن الثامن عشر وصحبهُ في رحلته جلة من علماء فرنسا انشأ في القاهرة اول مطبعة عربية وأصدر جريدة رسمية بالعربية والافرنسية كانت ايضاً اول صحيفة عربية . ولم يطل العهد حتى قام محمد علي الكبير يأخذ باليمين ما زهدت فيهِ ايدي مَن قبلهُ . فكان حقًّا واضع اساس النهضة العربية ، بما ارسل من البعثات العلمية الى فرنسا وما انشأهُ من معاهد العلم والصناعة على مثال الغرب وبلغة العرب ، وما هي الاَّ بعض سنين حتى توفر من اختارهم من صفوة اذكياء بلده على ترجمة العلوم المادية ، وتوطدت اركان النهضة في مصر على اساس علمي معقول ، وبدأ اختلاط الشرقي بالغربي يزداد سنة بعد سنة ، خصوصاً بعد اختراع السفن البخارية وامتداد الخطوط الحديدية

كان علم المشرقيات العربية يضعف في الغرب ويقوى بحسب ميل الحكومات وهدوء الاحوال الاجتماعية . والى العهد الذي قام فيهِ العلامة سلفستر دي ساسي ، إمام المستعربين في الغرب لم نعهد مستعرباً جمع الصفات التي تؤهلهُ للبحث في كتب العرب . فكان لهذا العالم الفرنسي الفضل على المستعربين في عصرهِ فطفقوا يختلفون اليهِ في باريز ، على اختلاف خاصرهم ، يأخذون عنهُ علوم العربية ولا بدع اذا كان هو وتبعاء تلاميذه من السويديين والهولانديين والافرنسيين والالمانيين والبريطانيين وغيرهم من الذين تمكنوا من معرفة اسرار لغتنا ، هم الذين عنوا بنشر امهات كتب العرب عن كفاية ثابتة ولولا عملهم العظيم لظللنا الى اليوم نجهل مدنية اجدادنا الاَّ قليلاً

طبع المعاصرون لسلفستر دي ساسي ومن خلفهم عشرات من المخطوطات العربية على اجمل طراز ، وما زال هذا الدؤوب يتسلسل في المستعربين من علماء المشرقيات ، على ما كان في اجدادهم البررة ، حتى احيوا لنا خزانة كتب فيها جماع حضارتنا . فأبدوا بما نشروا حسن بلاء اجدادنا في خدمة العلم ، وكذبوا القائلين بان العرب نقلة ليس فيما كتبوهُ ابداع ولا امتاع ، ونفوا من طرف خفي على ابناء اللغة انفسهم قصورهم ، فاكتسبوا بذلك فضل السبق علينا . ولم نزل معاشر العرب ، على ما بلغتهُ العلوم في هذا القرن من الترقي في مصر والشام خاصة ، عيالاً على المستعربين منكم في التدقيق والتحقيق

وما طبعناهُ في مطابعنا عدا الكتب الدينية واللغوية لا يعد الا مثالاً مصغراً من جهودكم المتوالية وطول اقامكم وشدة اماتكم في الحرص على اخراج نصوص مؤلفينا سالمة من الشوائب . ونحن اذا انتهينا اخيراً الى قصنا وقدرنا مساعي علماء المشرقيات حق قدرها فان الزمن الذي صرفناهُ في الدرس والبحث لم يكف لان يتأصل في نفوسنا روح العناية والاتقان ، لنخرج بما طبعناهُ في مصر والشام والعراق والغرب الاقصى والاوسط والادنى عدداً من الاسفار النافعة يبلغ القدر الذي اخرجهُ الغرب من حيث الكمية والكيفية . فالمستعربون الى اليوم لا يطبعون من الكتب القديمة الا ما كان في نشره فائدة ، ونحن ننشر الصالح والطالح وقلما خدمنا طبعاتنا مثل ما تخدمون به طبعاتكم من التجويد . وعسى ان لا يطول الزمن حتى يصبح التدقيق في ادق المسائل ملكة فينا على نحو ما غدا لكم عادة مستحكمة نحسدكم عليها حسد غبطة . فلسنا بثقوب اذهاننا وايم الحق دون اجدادنا ولا دون غيرنا من الامم الحديثة الحضارة ولكن نقصنا ظاهر في قلة الصبر والترتيب ومع هذا نعالجهُ

وفي الحق اننا لما بدأنا في نهضتنا العلمية في الشرق العربي كان ينقصنا كل شيء ولقي القائمون بالامر والداعون الى التجدد ضرباً من المقاومة من ارباب الجمود ، فلما تمت الادوات او كادت ، واتسع افق العمل امام العاملين ، اصبح الامل معقوداً بان لا يمضي زمن طويل حتى نضاهيكم في هذا السبيل ، وتساندكم حق التساند في ذلك الغرض الشريف لاسيما ونحن أحقُّ باحياء تراث السلف وان كان العلم ليس ملكاً لامة ولا لفرد

***

والآن بعد ان حدثتكم بهذا الحديث الذي تعرفونهُ ، احب ان انتقل بالاشارة الى النهضة العربية الحديثة فانها تبشر بخير عظيم ظهرت آثارهُ للعيان . فان ما نشرتموهُ واجدادكم الكرام ايها السادة من اسفار قدماء مؤلفينا في اللغة والشعر والادب والملل والنحل والاجتماع والتاريخ والجغرافيا والرحلات والقصص والفلسفة والفلك والطب والطبيعيات والرياضيات والموسيقى والكيمياء والزراعة والنبات والحيوان وجر الاثقال وعلم الكتب واسرار الحروف والخطوط من الفروع التي خاض العرب غمارها وما طبعناهُ نحن مقتفين فيه آثاركم ، قد احيت به امور كثيرة من معالم الحضارة العربية ، فدخلت لغتنا خصوصاً بعد اتقاننا آداب الامم الكبرى الحديثة في طور جديد ، وانقلبت سحنة الشعر والنثر عندنا ، ودخلت الكتابة والخطابة والتأليف والوضع في دور ما كان لها

الاّ في أرقى عصور الدول العربية الرشيدة . وشهد الله ان اللغة العربية اليوم تكتب بسلاسة لا تقلّ عن السلاسة المتمثلة في أرقى اللغات العربية . وقد ظهرت لنا في العهد الاخير في مصر والشام والعراق وغيرها صحف ومجلات وأسفار ومطبوعات فيها من الابداع شيء كثير ، اذا ترجم بعضها بلغة من لغات العلم في هذا القرن لا تخجل منها بل ترفع بها الرؤوس ، ذلك لأ نا عرفنا ان الغرب لم ينهض نهضتهُ هذه إلا بالاحصاء فنشأ منها الاحصائيون في اكثر العلوم واثّر كل ذلك في لهجتنا ، ورجعنا الى الاساليب التي كان اجدادنا يكتبون بها العلم ايام جدة اللغة . حتى ان اللهجة العامية اليوم في مصر والشام وتونس أرقى مما كانت عليه قبل خمسين سنة ، فقد دخلها كثير من الفصيح ، وحسنت تأديتها ولبست حلة أنيقة من الرشاقة تزينها جودة الفكر . وكما ارتقى التعليم في بلادنا ، وصقلت الاذهان ، ولطفت الاذواق ، زادت لغتنا رقة ودقة ، وقربت من اساليب الفصحاء لا محالة ، فقد رأينا اليوم صبيان الكتاتيب ينطقون بالفصيح ويكتبون بالفصيح ، على صورة لم تكد تكتب منذ اربعة قرون إلا لافراد قلائل جداً في كل قطر أفنوا اعمارهم في تعلمها ، على حين يتقن ذلك التلميذ من ابنائنا الآن في بضع سنين بفضل الاساليب الحديثة التي تلقيناها على الغربيين وانتشار علم التربية والتعليم في معلمينا واساتذتنا ، مما طبقناهُ بالاخذ منكم في مدارسنا ، فارتفع به مستوى العلم بين ظهرانينا

وما برحنا وفي ذلك الفخر العظيم لنا ، نرسل الى جامعاتكم بالمئات من طلابنا يتلقون العلوم على اختلاف ضروبها على اساتذة الغرب ليعودوا الينا يعلمون ويهذبون ، وينقلون الينا من مدنيتكم كل ما يحيي مدنيتنا القديمة ، ويقربنا من مثيل المدنية الحديثة ، على ما كان المولعون بالعلم من اجدادكم يرحلون الى الاندلس ليأخذوا العلم من علماء العرب . اذا عرفنا هذا فقد صح لنا ان نقول دون ما مبالغة ان في الشرق العربي الآن مدنية جديدة لا شرقية ولا غربية ، جمعت من مدنيتنا ومدنيتكم الاطايب . وكان لأوربا واميركا بذلك الفضل الاكبر على كل عربي في آسيا وافريقيا

ان اسفار الاجداد تنشر اليوم بالطبع في مراكش والجزائر وتونس والعراق وزنجبار والهند وفارس . وكانت مصر والشام سبقت تلك الاقطار ، واليوم يسبق هذان القطران سائر الاقطار العربية لتوفر على احياء ما اندثر من تلك العظمة القديمة . وتمشي على أثرهما تونس والعراق ، ولكن عمل مصر والشام أقوى في هذا الباب لانهما تقدمتا للدخول في ميدان الحضارة قبل غيرهما . ومصر اليوم بانتشار التعليم

والتمدن ليست دون كثير من شعوب الغرب وربما فاقت بذكاء ابنائها ، كما فاقت بذكاء تربتها واذا عرفنا ان الشرق اعطى للغرب فيما مضى مختاراً والآن يأخذ منهُ العلوم مختاراً، حق علينا ان نطلب دوام هذه الصلة بل بثها الى اقصى حد ممكن لان مصلحة المدنية تقتضي ذلك . واريد ان اقول اننا كنا في حاجة ماسة الى التضامن العلمي وأحكام صلات التعاون بيننا ، فبقدر ما يزيد اختلاطنا تتأصل المدنية وتزول الفوارق بين الامم والشعوب، فترفع بذلك مشاكل كثيرة ، فالشرق لا يعيش وحده ولا الغرب كذلك

انبعثت النهضة الاخيرة عندنا من القاهرة اولاً ثم تلتها بيروت ثم دمشق وتونس واليوم اخذ شعاعها يسري الى بغداد ، فاذا اخذتم بايدينا حقاً لحقت بنا غداً صنعاء ومكة وفاس وغيرها من بلاد العرب ، ومن جملة دواعي الاختلاط الرحلة الى البلد الذي تمهدهُ ، وهذا اصبح من الميسور جداً لنا ولكم بعد اتقان وسائل النقل السريع

***

ولما كان علماء المشرقيات قد اجتمعوا اليوم اجتماعهم السابع عشر في هذه الجزيرة السعيدة وفي حي اقدم جامعات القارة الاوربية رأت دولة سوريا ان تدعوكم الى التفضل بعقد مؤتمركم الثامن عشر في مدينة دمشق اول ارض انبعثت فيها المدنية العربية ، وفيها وقع اول تدوين في الاسلام ، وفيها بدىء بتعريب مدنية القدماء ، وفيها انشئت اول خزانة كتب عند العرب ومنها نقل العلم العربي الى بغداد شرقاً ، والى الاندلس غرباً ، فباسم دولة سوريا وباسم المجمع العلمي العربي وهو المجمع الوحيد في اقطار العرب الذي يتفانى في احياء لغتهم وبعث مجدهم القديم ، ادعوكم الى اجابة دعوتنا لتشرفوا من كتب على جهود امتنا ، وتدلوا بتفضلكم انكم مجمعون قلباً وقالباً على ان تزيدوا صلاتكم بديارنا وانكم منا ونحن منكم في باب هذا الاجتهاد . وان ارضاً كانت عشّ العظماء في الاسلام ، واخرجت بني امية وعلماءهم ، وهي مهد العجائب والاديان وآية الجمال الطبيعي في البلدان ، حرية بان تزار وتتعهد بالذكرى فهي من اقصاها الى اقصاها متحف طبيعي حيثما انقلب المرء يرى عظمة القدماء وبدائع الطبيعة الساحرة . وان ما في خزائننا من المخطوطات التي تنتظر منكم ان تتعاون على اخراجها للناس ، وما في ديارنا من مصانع وآثار جديرة بان تزار ، وان تقدس تلك العقول التي انتجتها ، فتكون قد خطونا خطوة مهمة نحو تعاون الشرق مع الغرب تعاوناً فعليًّا اساسهُ العلم والنور ورائدهُ تبادل الحب والسلام عليكم ورحمة الله